الفصل الخامس عشر

نهاية تجاربي

أوشك الوقت المعين لي في جزر أوركني على الانتهاء. كان من المفترض أن ألتقي هنري بعد أسبوع واحد قصير، وقد هطلت الأمطار طوال فترة إقامتي بأكملها تقريبًا. كانت السماء الرمادية اللون تبعث الراحة في نفسي إلى حد ما، والهواء البارد الرطب يصفي ذهني. نجح العمل وقاربت الانتهاء منه.

أخيرًا، حان الوقت. مرت ساعات على غروب الشمس وكنت أعمل في وقت متأخر من الليل، وكانت حجرتي مظلمة لأنني لم أضئ أية شموع. صرخت بصوت مرتفع: «لقد انتهيت! لقد انتهيت من صنع المسخ الثاني!»

راودني مرة أخرى نفس الشعور بالاكتئاب الذي انتابني بعدما صنعت المسخ الأول. وقفت ونظرت إليها وفي يدي المعدات التي تبعث الحياة، لكن شيئًا منعني.

لقد وافق المسخ على الرحيل، لكن «زوجته» لا تعرف أي شيء عن خططه، ولم تكن تعرف أنها صُنعت من أجله. ماذا لو لم يتبادلا الحب؟ ماذا لو لم ترغب في الرحيل معه؟ ماذا لو كانت أشر منه؟ سيكون لها عقلها الخاص، ولن تزيد قدرة المسخ على التحكم في أفعالها بعد الآن على قدرتي أنا على التحكم في أفعاله.

فكرت في نفسي: «لا، لا يمكنني أن أبعث الحياة في كائن آخر من هذه الكائنات.»

وضعت معداتي جانبًا، فلن أضرم الشرارة الأخيرة. وفجأة ظهر المسخ عبر النافذة! لقد رآني وأنا أتوقف عند اللحظة الأخيرة تمامًا، ورآني وأنا أضع المعدات جانبًا وأغادر الغرفة. هززت رأسي يمنة ويسرة كي أخبره أن الأمر قد انتهى، وأنني لن أكمل هذا المشروع. رآني المسخ، فتأوه واغتم وأجهش في البكاء، وبعدها بلحظات اندفع داخل بيتي.

قال المسخ مترجيًا: «فرانكنشتاين، لماذا لن تكمل العمل؟ لماذا لن تبعث الحياة فيها؟ لا بد أن تتم الوعد الذي قطعته لي.»

أجبته: «لن أصنع كائنًا آخر مثلك.»

قال في إصرار: «أنت مدين لي بالكثير! أنا لا أنتمي إلى هذا العالم، ووجودي هنا هو خطأ منك. إذا رفضتني أنت مثلما رفضني سائر العالم فسأمضي بقية حياتي البائسة تعيسًا ووحيدًا. ألا ترى هذا؟»

قلت في هدوء: «أنا آسف، لكنني لن أكمل هذا العمل. لن تزيد قدرتك على التحكم في هذا الكائن بعد الآن على قدرتي أنا على التحكم في أفعالك. أنت لا تعرف ما الذي قد يحدث إذا بعثت الحياة فيها. ولن أكون مسئولًا عن أي شيء آخر مثلك.»

بدا المسخ غاضبًا ومنزعجًا فقلت له: «أرجوك قدر موقفي. أعلم أنك تعيس، لكن هذا ليس الحل. والآن لا بد أن ترحل، سأغادر هذا المكان صباح الغد، ولن آخذ أي عمل معي، فلسوف يُدفن في هذه الجزر إلى الأبد.»

قال المسخ ببرود: «سوف أرحل، لكنني لن أسامحك أبدًا. لقد حنثت بوعدك، ولسوف تدفع ثمن هذا يا فرانكنشتاين، ستدفع ثمن هذا. أسرتك في خطر، وأنت في خطر. سأجعلك تذوق إحساس أن تكون وحيدًا في عالم يكرهك كل من فيه. احذرني. سأكون معك في ليلة زفافك.»

أغلق الباب بقوة وراءه ثم ركض في الظلام، وشعرت بالبرد القارس وأنا أطارده بالخارج، وقبل أن أتمكن من الإمساك به قفز المسخ إلى القارب وجدف منطلقًا عبر المياه، وبعد قليل توارى عن الأنظار وسط الأمواج فلم أعد أراه.

كان الهدوء يسود البيت، فكان الصوت الوحيد الذي أسمعه هو صوت المحيط. ودوت كلمات المسخ الأخيرة في أذني: «سأكون معك في ليلة زفافك.»

تُرى ماذا يقصد بذلك؟!

صحت في هلع: «قطعًا يريد المسخ أن يؤذي إليزابيث.» وللمرة الأولى منذ أشهر جلست وأجهشت بالبكاء. لا بد أن أمنعه بأي وسيلة ممكنة. لا بد أن أمنعه قبل أن يؤذي أي شخص أحبه في هذا العالم.

الفصل السادس عشر

الاتهام

استيقظت في الصباح التالي ولا زال الغضب من نفسي ومن المسخ يتملكني. غادرت المنزل وقضيت الصباح أهيم على وجهي كالشبح. كنت بعيدًا للغاية عن كل ما أحبه من أشياء وأشخاص. جلست على الشاطئ هذا اليوم ساعات كثيرة، وكنت أشعر بالبرد والخوف والجوع. وما من شيء استطاع أن يجعلني أفيق من غفلتي، لا شيء فيما عدا زيارة من الساعي الذي أحضر لي رزمة من الخطابات.

كانت هناك خطابات من والدي ومن إليزابيث، لكنني كنت مغتمًّا للغاية فلم أستطع أن أفتحها. وكان هناك أيضًا خطاب من هنري. جعلتني رؤية خط يده المألوف لي أشعر بشيء من التحسن، ففتحت الخطاب الذي كان مليئًا بالقصص الممتعة حول رحلته، وأخبرني كم الحياة في اسكتلندا ممتعة، وأخبرني أن خططه للسفر إلى الهند تسير على ما يرام. أخبرني أنه تلقى خطابًا من صديق في لندن يخبره أنه لا بد أن يعود إلى هناك في أسرع وقت ممكن.

قال هنري في الخطاب: «فيكتور، أنا مضطر أن أترك اسكتلندا اليوم. أعرف أنه كان من المفترض أن نلتقي في إدنبرة، لكن لم لا تسافر إلى لندن بدلًا من إدنبرة؟»

لم يكن هناك ما يدعوني إلى البقاء في جزر أوركني الآن. لم يكن هناك سوى الألم والندم على اقتراف الكثير من الأخطاء. وكان هناك الكثير من الأمور التي عليّ أن أقوم بها قبل أن أعود إلى الوطن، وأولها هو تنظيف مكان تجربتي الأخيرة غير المكتملة.

بدأت في حزم أمتعتي في الصباح الباكر من اليوم التالي. وبحلول وقت ما بعد الظهيرة كان قد تبقى لي شيء واحد أفعله ألا وهو جمع أدوات المعمل. استجمعت كل شجاعتي وفتحت الباب، وكانت أجزاء عملي متناثرة في كل الأرجاء. وكان هذا هو الدليل على الوعد الذي أخلفته.

في بادئ الأمر نظفت معداتي وطرحتها جانبًا، ثم أخذت الكائن المسكين للخارج، وتلوت عليه صلاة قصيرة ثم دفنته بجانب البيت. وفيما انتهيت من عملي كان الليل قد أرخى سدوله. من الآمن أن أنتظر حتى الصباح كي أعبر الماء بقاربي. لكنني كنت قد عقدت العزم على ترك الجزيرة في هذا اليوم، لذا شددت رحالي.

كانت الغيوم تغشي السماء المظلمة لذا لم أستطع أن أرى القمر، فكان الفرق بين البحر والسماء لا يُذكر. كان الظلام مدلهمًّا، والنجوم متوارية. للمرة الثانية في حياتي أخشى الظلام. نقلت أغراضي إلى القارب الصغير وأبحرت في المياه الغادرة. وسرعان ما هاجت الأمواج فكان من الصعب الإبحار، وعصفت الرياح بقوة في الاتجاه غير المواتي، ووجدت الأمواج تتقاذفني وسط البحر، ومرت ساعات عديدة على هذا النحو، وكلما حاولت أن أتحكم في القارب أبحر في الاتجاه الخاطئ.

ولمّا طلع النهار سكنت الريح. هبت نسمة خفيفة على الأشرعة الآن، وأخيرًا تمكنت من أن أعيد القارب إلى المسار الصحيح. وبالتدريج شق القارب طريقه نحو الشاطئ، وسعدت لرؤيتي من بعيد بلدة صغيرة بها مرسى جيد.

كنت أربط القارب وأنزل الأشرعة حينما تجمهر حولي حشد من الناس يتهامسون ويشيرون نحوي مما أثار انزعاجي.

قلت في هدوء: «مرحبًا، هل من الممكن أن يخبرني أحدكم أين أنا من فضلكم؟ ما اسم هذه البلدة؟»

أجاب رجل ذو صوت أجش وبنبرة متوعدة: «ستعلم سريعًا! لعلك رسوت في مكان لن يروق لك. وبعد قليل سنريك أين ستمكث!»

ارتبكت بشدة من إجابته إذ لم تكن من عادة الغرباء أن يكونوا بهذه الدرجة من الوقاحة.

سألته: «ما الذي يحدث؟»

أجاب: «أنت مجرم! ونحن لا نرغب في وجودك هنا.»

قلت: «ما الذي تتحدث عنه؟ من فضلك لقد قضيت الليل كله وسط المياه أصارع الرياح العاتية. لا بد أنك خلطت بيني وبين شخص آخر.»

أجاب على نحو فظ: «سنتحقق من هذا! لا بد أن تقابل السيد كيروين القاضي. يمكنك أن تخبره بقصتك.»

قلت: «ولم أقابل قاضيًا؟ أنا لم أقترف أي خطأ!»

قال: «كما قلت لك، أخبره بهذا! وُجد أحدهم قتيلًا الليلة المنصرمة. وأنت الشخص الوحيد الذي رأيناه يأتي إلى المدينة.»

قلت: «حسنًا، إذن يسعدني أن ألتقي قاضيكم. أنا بريء تمامًا!»

تبعت الرجال في طريقهم نحو المدينة بعيدًا عن قاربي. وكان مكتب القاضي في بناية جميلة بوسط القرية. ولم نستغرق وقتًا طويلًا في الوصول إلى هناك، لكن السير كان شاقًّا، إذ كنت أشعر بالجوع الشديد وكان حلقي جافًّا. وقد أعيتني الليلة الطويلة التي قضيتها في المياه، فأردت أن أستلقي وأخلد إلى النوم. لكن جمع الناس الثائرة من حولي جعلني أقرر أنه من الأفضل أن أظل رابط الجأش وأواصل.

كان السيد كيروين رجلًا كريمًا يتحلى بالفضائل الطيبة. دعا القاضي الجمع المحتشد في القاعة لالتزام النظام قبل أن يسأل: «من الذي أحضر هذا الرجل للمثول أمامي؟ ما الذي فعله؟»

أجاب الرجل الفظ الذي أحضرني إلى هناك: «أنا يا سيدي، نحن نظن أنه هو من فعلها.»

طلب القاضي منه أن يفسر الأمر. قال الرجل إنه خرج ليصطاد البارحة بصحبة شقيقه وابنه، وفي طريق عودته من قاربه تعثر في شيء ما، وعندما انحنى لينظر ما هذا الشيء وجد شابًّا مستلقيًا على الشاطئ، وقد حاول أن يوقظه لكنه كان ميتًا.

تكلم شقيق الرجل بعده وشهد أنه رأى رجلًا في قارب في وقت مبكر من النهار، وأقسم للقاضي أنه نفس القارب الذي أبحرت أنا فيه نحو الشاطئ. وبعدها أخبرت امرأة القاضي أنها رأت هذا الرجل يدفع قاربه نحو البحر بالتحديد عند البقعة التي عثروا فيها على الشاب المسكين. وقال كثيرون آخرون إنه لا بد أن الرياح قد أعادتني إلى الشاطئ فيما حاولت أن أهرب.

قرر السيد كيروين أنه لا بد أن أرى الشاب، إذ أراد أن يرى ماذا سيكون رد فعلي. ولمّا كنت أعلم أنني بريء وافقت. سرنا باتجاه إحدى الغرف، ثم فتح الباب.

رأيت صديقي العزيز هنري كليرفال مستلقيًا هناك باردًا برود البحر الذي عبرته!

صرخت: «لا! هنري، أوه، هنري، ليس أنت أيضًا! أنا المسئول عن كل هذا، هذا خطئي أنا ...»

لم يعد جسدي يتحمل الألم فسقطت على الأرض. وقضيت الشهرين التاليين في نوبة حمى شديدة، وقد مرضت بشدة حتى إن حياتي كانت في خطر معظم الأوقات. وعندما

استيقظت وجدت نفسي في السجن. كنت أخرف وأهذي خلال مرضي حول تسببي في قتل أخي، وسجن جاستين، والآن مقتل هنري. تأوهت بصوت مرتفع حتى إنني أيقظت الممرضة التي كانت تجلس بجانب فراشي.

قالت وهي تبدو متعجبة: «سيد فرانكنشتاين، هل أنت مستيقظ؟!»

قلت في هدوء: «أجل، آمل أن ألا يكون هذا إلا كابوسًا. يؤسفني أنني مستيقظ وفي هذا المكان الكريه بعد كل ما حدث. ليتني مت.»

قالت: «يجب أن أذهب وأخبر القاضي!» نهضت الممرضة وتركتني وحدي في زنزانتي. وحضر السيد كيروين بعد وقت قصير من ذهابها، ودار بيننا حوار طويل. عاملني القاضي معاملة مهذبة ونزيهة، فهو الذي رتب أمر العناية بي أثناء وجودي في سجنه، وحاول أن يوفر لي المزيد من سبل الراحة. وقد فتش أغراضي التي كانت في القارب بعد مرضي، ورأى خطابات هنري وأسرتي، وعلم أنني رجل مثقف ونبيل، وعلم أيضًا أنني لا يمكن أن أكون مذنبًا، لكنه لا يستطيع أن يطلق سراحي إلى أن تثبت براءتي.

شكرت القاضي من أجل كرم أخلاقه وسألته بسرعة هل تلقى أي أخبار عن أسرتي، فأنا أريد أن أعرف هل كل فرد فيهم بخير أم لا.

أجاب القاضي: «أجل، إنهم بخير، وهم حزانى لموت أعز أصدقائك، ويستبد بهم القلق على صحتك المعتلة، وهم يعرفون أنك بريء. والآن لا بد أن نثبت هذا لسائر المحكمة.» وتوقف القاضي عن الكلام لحظة ثم أردف: «ثمة شخص هنا يود مقابلتك.»

أول ما تبادر إلى ذهني هو أنه المسخ لذا صرخت: «لا! لا أريد أن أراه!»

قال القاضي في صرامة: «أيها الشاب، أرى أن صحبة والدك ستكون سارة لك في ظل هذه الظروف. لماذا هذا الهيجان؟»

قلت متعجبًا: «والدي؟ والدي هنا؟ أوه، أجل! يسرني أن أراه. آسف يا سيدي، ظننتك تتحدث عن شخص آخر.»

اندهش السيد كيروين من التغير الذي طرأ على نبرتي وقال: «أرجو أن تكون هذه هي آخر أعراض الحمى أيها الشاب.»

وفي ظرف ثوانٍ وقف والدي الرقيق إلى جانبي، فمددت يدي له وقلت: «كيف حال إليزابيث وإيرنست؟»

أجاب: «بخير يا ولدي، يؤسفني أن أعرف أنك مررت بهذا الوقت العصيب. كما أنا آسف لما حلّ بهنري المسكين!»

– «أنا بريء يا أبي. لا بد أن تعرف هذا.»

قال: «أعرف يا ولدي أعرف.» وكان صوته مُطَمْئِنًا للغاية. ثم أضاف: «عثرنا على شخص من جزر أوركني كي يشهد في المحاكمة، ولسوف يشهد بأنك كنت في الجزيرة عندما عثروا على عزيزنا هنري، فقد سلمك رزمة من الخطابات عندما كنت جالسًا على الشاطئ!»

بحلول وقت المحاكمة كنت قد قضيت ثلاثة أشهر في السجن، وصدقت هيئة المحلفين الشاهد وأطلقوا سراحي. ضربني والدي على ظهري تعبيرًا عن سعادته التي لم يستطع أن يخفيها. سرنا خارج جدران السجن واستنشقت نسمتي الأولى من الهواء الطلق.

قلت: «أبي، لا بد أن نذهب إلى المنزل في الحال.»

لم ير أبي أنني أتمتع بهذه الدرجة من الصحة التي تمكنني من السفر، لكنني أصررت على الرحيل في الحال. وغادرنا باكر الصباح التالي. استأجرنا سفينة كي تقلنا إلى جنيف مباشرة. وكنت سعيدًا بالعودة إلى المنزل. جلست على متن السفينة برفقة والدي ونظرنا إلى البحر. لقد رحل هنري، ولا يمكن أن يعيده أي شيء. عاودت التفكير في تلك الليلة التي صنعت فيها المسخ. لقد تدمرت حياتي بسبب عملي، ولا يمكن أن يغير شيء من هذا الواقع الأليم الآن، فتقبلت مصيري في هدوء.

الفصل السابع عشر

العودة إلى جنيف

بعد مرور ستة أسابيع رحبت إليزابيث بنا ترحيبًا حارًّا والدموع تملأ عينيها الزرقاوين الجميلتين. حاولت أن أكون سعيدًا أيضًا لرؤيتها، لكن ذكريات السنوات القليلة المنصرمة قهرتني، ولأيام لم أتحدث إلى أي أحد، وإنما جلست بلا حراك أنظر عبر النافذة.

وفي اليوم الثالث جلس والدي معي وقال: «أرجوك يا ولدي العزيز لقد مُنيت عائلتنا بالكثير من الخسائر. لا بد أن نتشبث بشدة بما تبقى منها، سنحظى بعالم صغير لكنه سعيد. لا بد أن تتزوج إليزابيث، لتدخل بعض البهجة إلى حياتك.»

عندئذ دوت كلمات المسخ في رأسي: «سأكون معك في ليلة زفافك.»

قلت: «أبي، أنا أحبها، لا بد أن تصدق أنني أحبها. لكن ربما لا تكون بالفكرة الصائبة أن أتزوجها. لا أظن أنني سأسعدها، فأنا في حالة نفسية سيئة.»

قال: «هذا هراء، أنت تحبها وهي تحبك. هذه خلاصة القول.»

خططنا لعرسنا وحددنا موعده، وعادة ما كانت طبيعة إليزابيث الرقيقة تهدئ من روعي. خرجنا للتمشي لمسافات طويلة وتعلمنا مرة أخرى أن ننعم بصحبة أحدنا للآخر. كنت شديد التوتر، فقد استبد بي القلق من أن يقع لها مكروه، وقد أقسمت بداخلي بأنني سأفعل كل ما بطاقتي لأضمن ألا يمسها أي أذى.

وكان يوم عرسنا رائعًا، وقد رجع أخي إيرنست من العمل بالخارج، ولم يبد أبي فخورًا في حياته كما كان في هذا اليوم. بدت إليزابيث جميلة، وتمكنت من أن أتظاهر بالسعادة من أجلها، وخططنا لقضاء شهر العسل فقررنا أن نذهب في رحلة إلى بحيرة كومو بإيطاليا، المكان الذي يحظى بمكانة خاصة لدى كل منا.

وفيما كانت تجهز ملابسنا اتخذت كل الاحتياطات اللازمة لحماية كلينا من المسخ. ولم تكن إليزابيث تدري أن ثمة خطبًا ما، وكنت أعرف أنه ليس بمقدوري اطلاعها على الأمر، فقد تخيفها هذه القصة للغاية.

غادرنا في الصباح بعدما تزوجنا، فكانت هذه هي آخر لحظات في حياتي أشعر فيها بالسعادة من كل قلبي. استمتعنا بالمناظر الجميلة واجتزنا جبال الألب الرائعة، وانتقلنا عبر أنهار ساحرة، وعبرنا حقولًا شديدة الخضرة واستمتعنا بهواء الصيف الدافئ.

الفصل الثامن عشر

انتقام المسخ

بدأ الليل يرخي سدوله عندما وصلنا إلى فندقنا، وخرجنا في جولة قصيرة ثم تناولنا وجبتنا الأولى كأسرة في غرفتنا. كان من المقرر أن أول شيء نفعله في الصباح التالي هو أن نسافر إلى إيطاليا.

وفجأة بدأت عاصفة مطرية، وكانت المياه تضرب النوافذ بقوة بدرجة شعرنا معها بشيء من الخوف. وما إن حلّ الظلام حتى تلاشى هدوئي وسعادتي. وبعدما خلدت إليزابيث إلى النوم تسارعت إلى ذهني مئات المخاوف. كنت متوترًا ومنتبهًا، فكان كل صوت يرعبني لكنني لم أتحرك، وظللت أحرسها بكل طاقتي.

مسحت كل ممرات النُّزل بحثًا عن المسخ، وتفقدت كل ركن وكل غرفة مفتوحة، فلم تكن هناك أي أمارات تشير إلى وجوده، فظننت للحظة أن كل شيء سيكون على ما يرام، وعندئذ سمعت صرخة.

ركضت عبر السلالم إلى غرفتنا، فوجدتها مستلقية على فراشنا. أوه، لقد أخذ المسخ بثأره! رحلت عزيزتي إليزابيث المحبوبة التي لم تؤذ أي شخص في حياتها. لقد نفذ الوحش وعيده ومنحني حياة مثل حياته، وحُكم عليّ أن أقضي بقية حياتي بائسًا وحيدًا مثل المسخ المخيف الذي صنعته.

هرعت لأفتح النافذة لأرى هل بمقدوري الإمساك به. كان الهواء باردًا واندفعت الأمطار إلى داخل الغرفة. رأيت المسخ يقف على الأرض خارج النافذة.

صرخت: «قف! أيها الوغد! لقد قتلت زوجتي!» حضر جمع من الناس إلى الغرفة لدى سماع صراخي، فصحت: «هذا الرجل قتل زوجتي! أسرعوا، لا بد أن نمسك به!»

ركض الرجال في الخارج ومكثت النساء للاعتناء بجسد إليزابيث. حاولنا اقتفاء آثار المسخ دون جدوى. لم نستطع العثور عليه. لم أستطع تحمل الأمر وغُشي عليّ. حملني

أناس المدينة الطيبون إلى الغرفة ووضعوني في الفراش. لكنني لم أستطع أن أرتاح وهو لا يزال بالخارج وقد دمر فرصتي الوحيدة في السعادة. نزعت عني الغطاء وذهبت إلى الغرفة المجاورة لألقي نظرة أخيرة على حبي الحقيقي.

قلت وأنا أبكي: «آه يا عزيزتي إليزابيث. أنا آسف للغاية. لقد أحببتك حبًّا جمًّا يا محبوبتي.» ثم أخذتها بين ذراعيّ وقبلتها قبلة الوداع. أحسن كل من صاحب النُّزل وزوجته معاملتي للغاية، وقالا إنهما سيحرصان على وصول جسد إليزابيث إلى الوطن بالسلامة. سطرت في عجالة خطابًا إلى أبي، وأخبرته أنني أنوي العثور على الرجل الذي تسبب في كل بلايانا.

وخرجت مهرولًا في الليل للعثور على المسخ. لم أعرف إلى أين ذهب أو إلى أين سيذهب، ولكن لم يكن لذلك أهمية. الشيء الوحيد الذي كان يهمني هو العثور عليه.

أدركت أنني لن أعود إلى وطني مرة أخرى، فغمتني هذه الفكرة بشدة. وأدركت أن أبي سيكون شديد التعاسة أيضًا، لكنني لم أشأ أن أسبب له مزيدًا من الألم. سيشق عليه هو وإيرنست الحياة بعد موت إليزابيث، لكن الفعل الوحيد الحميد وسط كل أفعالي هو القضاء على ما جنته يداي.

أسرعت خارج الفندق، وكنت أسمع دوي صدى صوت من بعيد في الفضاء الفسيح. كان الصوت آتيًا من البحيرة نفسها لضحكات عالية وشريرة.

صرخت: «هذا هو! إنه في البحيرة.»

قفزت إلى أحد القوارب وبدأت أجدف بكل ما أوتيت من قوة، وعندئذ بدأت الرحلة الطويلة. أطارده طيلة أشهر الآن؛ من شواطئ سويسرا إلى الحقول الجليدية الباردة في روسيا، هو يركض وأنا أركض وراءه.

كانت حياتي بائسة فقد خلت من الراحة التي يبعثها المنزل والأصدقاء الذين يجلبون البهجة على حياتي والأسرة التي أحبها. لكنني عرفت أنني لن أذوق طعمًا للراحة إلى أن أعثر عليه وأدمره.

وعندما وصلت سانت بطرسبرج ترك لي المسخ ورقة يقول فيها: «أنت لا تزال على قيد الحياة يا فرانكنشتاين، لكنني أعلم أنك تعيس. اتبعني الآن إلى مملكة القطب الشمالي الجليدية، فلسوف تشعر بألم البرد والجليد. إذا أردت أن تمسك بي لا بد أن تفعل ما أقوله.»

وما كنت لأتوقف عن البحث قط، لذا شرعت في رحلتي إلى القطب الشمالي باستخدام المزلاج واتجهت بي الكلاب التي تجر المزلاج شمالًا. وكاد يتعذر عليّ احتمال البرد، وكان

يترك لي خيوطًا على طول الطريق في صورة تعليقات مفادها أنني أسير في الاتجاه الصحيح. وكلما ازدادت البرودة صعب عليّ الدفع، فكان الشيء الوحيد الذي يدفعني إلى التقدم هو أنني أخيرًا سألتقي المسخ وأنهي الأمر برمته للأبد.

كانت الكلاب تقود المزلجة بسرعة كبيرة، من ثم مكنوني من اللحاق به أكثر من أي وقت مضى. وصلت إلى قرية صغيرة وسألت الناس هناك هل رأوا أي شيء يسترعي الانتباه.

أخبرني شخص ما أنه رأى رجلًا قبيحًا بدرجة مرعبة كان يسير بمزلاجه قبل وصولي بساعات. وكان المسخ قد سرق بعض الطعام وهرب بعد أن أفزع معظم سكان المدينة الصغيرة. وما هال أولئك الرجال والنساء أن المسخ اتجه نحو أرض مهجورة لا يسكنها أحد.

قال الرجل: «لا يمكن أن ينجو أحد هناك؛ إما أنه سيتجمد حتى الموت أو يعلق في الكتل الجليدية الطافية؛ في كلتا الحالتين لن ينجو قط.»

شكرته على المعلومات التي أمدني بها، ثم اشتريت بعض المؤن للرحلة الطويلة التي أمامي. اهتزت الأرض من تحتي، وتشقق الجليد وتسربت المياه منه. وبدأ البرد يضايقني في أنفي وأذني وأصابع يديّ وقدميّ. غير أنني لم أتراجع. وعندئذ أخيرًا رأيته هناك! كان يبعد عني بمسافة ميل، لذا تقدمت بسرعة.

هبت الريح وهاج البحر، وفجأة حدثت هزة عنيفة كما الزلزال، فانشق الجليد محدثًا فجوة واسعة. علقت فوق كتلة جليدية عائمة، وخابت كل آمالي في الإمساك بالمسخ، وطفوت على صفحة الماء. ما كنت لأتحمل بالطبع قضاء ليلة حبيس كتلة صغيرة من الثلج.

مضت ساعة تلو الأخرى، وأخذ الجليد يذوب بالتدريج أسفل مني. كدت أفقد كل أمل في النجاة. كانت حياتي ستنتهي في هذه الأرض الجليدية القاحلة، ولن أستطيع أن أنهي ما بدأته.

الفصل التاسع عشر

أيام فيكتور فرانكنشتاين الأخيرة

قال فرانكنشتاين: «كان هذا عندما رأيت سفينتك يا كابتن والتون. كان لا بد أن أتصرف سريعًا، لذا كسرت مزلاجي إلى مجاديف وجدفت باتجاه سفينتك. وقررت أنه إذا كنت تنوي الإبحار جنوبًا فسأواصل أنا تقدمي شمالًا، إذ لم أشأ أن يهرب المسخ.»

قلت له: «من الجيد أنك صعدت على متن سفينتي، لقد أنقذنا حياتك يا صديقي.»

أجاب فرانكنشتاين: «أجل، وأنا أشكرك شكرًا جزيلًا من أجل هذا، لكن أريدك أن تعدني بأنك ستعثر على المسخ إذا لم أفلح أنا في هذا، وأنك ستقدمه للمحاكمة من أجل كل ما اقترفه، وكل ما مررت به بسببه.»

وعدته أن أفعل هذا. وعندئذ سقط فرانكنشتاين في فراشه في حالة مزرية، وراح في سبات عميق مضطرب.

مر أسبوع، وأردت أن أجعله يشعر بالتحسن كي أخفف عن عقله المضطرب، لكنني أدركت أنه ليس بمقدوري هذا. كانت صحة فرانكنشتاين واهنة للغاية. مكثنا بالداخل وقضينا الأيام نتسامر.

قال لي في صبيحة أحد الأيام: «عندما كنت صغيرًا كنت أؤمن بأنني خلقت لأصير عظيمًا. وكان لهذه المشاعر أهمية كبيرة في حياتي حتى إنني لم أفكر في أي شيء آخر، فتخليت عن حياتي برمتها كي أتفرغ للعلم من أجل هذا الهدف الوحيد وهو أن أصنع حياة من العدم.»

وتوقف عن الكلام ثم مسح الدموع التي ملأت عينيه وقال: «لكنني فقدت كل شيء.»

ساورني القلق من أن تتدهور صحة فرانكنشتاين وأفقده، فبعدما رجوت كثيرًا أن أجد صديقًا صالحًا لم أشأ أن أخسره. لقد قضينا أوقاتًا كثيرة معًا، ولا أستطيع أن أتخيل حياتي بدونه، لكنني أدركت أن لديه مخاوف أعظم.

قال فرانكنشتاين: «سأتعقبه حتى النهاية، فهذا هو السبيل الوحيد لإنهاء هذا الأمر.»

كنا مهددين في كل لحظة وكل يوم بأن تسحق جبال الجليد سفينتنا، وكان أفراد طاقمي مرتعدين، وحتى أنا كنت خائفًا من ألا نعود إلى إنجلترا، وشعرت أنني خذلتهم؛ فلقد ائتمنني أولئك الرجال على حياتهم، وإن لم نستطع العودة فستقع المسئولية كاملة على عاتقي؛ فرغبتي الأنانية في رؤية أرض لم يرها إنسان ستكون السبب في موت أنفس كثيرة.

وفيما ساورتني المخاوف هدأ فرانكنشتاين من روعي، وحاول أن يخبرني بأن الجليد سينكسر ولسوف نرى سماء إنجلترا الزرقاء مرة أخرى. كان من الصعب عليّ أن أصدقه ولا سيما كلما نظرت إلى وجوه الرجال المضطربة يومًا بعد يوم.

وأخيرًا، جاء بضعة بحارة لرؤيتي في غرفتي، وأخبروني أن الطاقم لم يعد يرغب في المضي قدمًا في هذه الرحلة حتى لو انفتح الجليد، فهم يرغبون في العودة بالسفينة والإبحار نحو الوطن، لأنهم يرغبون في رؤية أسرهم. وهل بمقدوري أن ألومهم على هذا؟

أخبرتهم بأننا سندير السفينة بالفعل فور انفتاح الجليد وتحرير السفينة.

وفي الصباح التالي مباشرة سمعت صيحات التهليل في كل الأرجاء عقب سماع الأصوات العالية الصادرة عن تشقق الجليد وانكساره. وعندما عرجت على فرانكنشتاين لأتفقده كعادتي كل يوم، سألني عن سبب هذه الجلبة المفاجئة؛ إذ تناهت إلى مسامعه صيحات التهليل من سطح السفينة، فأخبرته أن الجليد قد تحرك وأننا سنبحر إلى الوطن حالما نستطيع أن نحرر السفينة.

رد في عجالة: «لا، لا يمكنني أن أغادر هذا المكان قبل أن أعثر على المسخ. لا بد أن أغادر سفينتك، لن أعود معك.»

حاول أن ينهض، لكن عسر عليه ذلك في ظل حالته الصحية المتدهورة، فسقط وغاب عن الوعي على الفراش. استدعيت طبيب السفينة الذي جاء لتوه.

قال الطبيب لي وفرانكنشتاين راقد: «يؤسفني أنه في حالة مزرية للغاية، سيكون محظوظًا إذا تمكن من العيش حتى الليل.»

أجبته: «أشكرك أيها الطبيب.» وعندئذ عدت إلى جانب فراشه لأرافقه خلال هذه الساعات الأخيرة.

استفضنا في الحديث حول حياته وما حدث. وأخبرني أن قرار العودة إلى الوطن هو قرار صائب. قال لي: «إن حياة أولئك الرجال أهم بكثير من أهدافنا الأنانية.»

وأردف فرانكنشتاين: «لا بد أن تعي جيدًا هذا الدرس يا صديقي العزيز. أنت محظوظ لأنني علمتك إياه، وانتبه جيدًا إلى أخطائي.» ثم ضغط على يدي بقوة وعندئذ أغلق عينيه للأبد، وابتسامة رقيقة تداعب شفتيه.

انهمرت الدموع من عينيّ، فمسحتها سريعًا وخرجت من غرفته لأستنشق نسمات من الهواء المنعش. ولم تمر لحظات على صعودي إلى سطح السفينة حتى سمعت ضوضاء غريبة تأتي من غرفة فرانكنشتاين. هرعت إلى هناك فوجدت المسخ يقف إلى جانب الفراش!

كان ضخمًا للغاية؛ أضخم من أي رجل رأيته في حياتي، وقد توارى وجهه وراء خصلات شعره الطويلة المنسدلة، وقد وضع يده الضخمة على كتف فرانكنشتاين. سمعني وأنا أفتح الباب فاستدار. وعندما رآني أقف بالباب قفز نحو النافذة.

أوه! ما هذا الوجه! لقد كان أكثر شيء مخيف رأيته في حياتي. أغمضت عينيّ لاإراديًّا، لكنني بعدئذ ناديته لكي ينتظر.

قلت: «انتظر!»

توقف لحظة ثم قال: «هذا ما جنيته أنا! لقد فعلت به هذا؛ لقد انتزعت منه كل شيء أحبه. والآن رحل صانعي! آه يا فرانكنشتاين، أنا آسف بشدة. أنا آسف من أجل كل ما حدث.»

بكى المسخ متألمًا وقال: «الوداع يا فرانكنشتاين، الوداع! يمكنك أن تصدقني الآن: سأحفظ وعدي هذه المرة؛ سأترك عالم الأحياء إلى الأبد. لن أرى الشمس ولا النجوم بعد الآن، ولن أسبب لأسرتك أي ألم بعد الآن. آه يا صانعي الحبيب، أعلم أنك لا تستطيع أن تسامحني، لكنك تستطيع الآن على الأقل أن ترقد في سلام.»

كانت هذه آخر كلمات نطق بها المسخ قبل أن يقفز من نافذة الغرفة. ركضت وراءه فيما قفز للخارج وهبط على كتلة جليدية، وسرعان ما اختفى وسط الأمواج، وتوارى عن نظري وسط الظلام والفضاء. أخيرًا انتهى الأمر كما أراد فرانكنشتاين. لسوف أتذكره هو والمسخ وقصتهما المروعة ما حييت. وكما تمنى فرانكنشتاين وضعت أخطاءه نصب عينيّ واستدرت بسفينتي وعدت أدراجي إلى الوطن.